Hespéris-Tamuda LX (1) (2025) : 229-239

An Unpublished Letter from the Inhabitants of Fez to Sultan Mūlāy ʾIsmāʿīl, Ibn as-Sharīf

Risāla gahyr manshūra min ʾAhl Fās ʾilā al-Sulṭān Mūlāy ʾIsmāʿīl ʾIbn as-Sharīf

رسالة غير منشورة من أهل فاس إلى السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف

نورمان زيگار
U.S. Marine Corps University (Retired)

Abstract: The document presented here consists of a previously unknown letter dated 1121/1709 from the city of Fes to Morocco's ruler Mūlāy Ismāʿīl. The letter comes in response to threats from the palace due to the refusal of the city's *ʿulamaʾ* to recognize as legitimate the enslavement of the city's *Ḥarāṭīn* by Mūlāy ʾIsmāʿīl for his new *ʿabīd* army. The language in the document is elegant and diplomatic and expresses the city's high regard for the Sultan and stresses its loyalty, but it avoids addressing the real issues at stake and, at the same time, implicitly the city does not back down on the principle that free Muslims could not be enslaved. The document is a copy of the now-lost original, and comes from a manuscript collection in the Bodleian Library, University of Oxford.

Keywords: Morocco, Fes, Mūlāy ʾIsmāʿīl, *Ḥarātīn*, *'Ulamā*.

تقديم الوثيقة

نقدم هنا رسالة بعث بها أهل فاس إلى السلطان المولى إسماعيل بن الشريف في سنة 1121هـ/1709م. وتُوجد نسخة منها في خزانة البودليان التابعة لجامعة أكسفورد البريطانية. وقد عثرتُ عليها ضمن مجموع يحمل بين طياته عددًا من الرسائل المغربية تعود إلى أوائل الدولة العلوية.[1] ولم تُنشر بعد هذه الرسالة، وليست مذكورة في أي تأليف تاريخي ولا في أي دليل ببليوغرافي. وقد نُقلت هذه النسخة من الأصل من غير واسطة كما يدلّ عليه كلام الناسخ نفسه. ومع الأسف، لا نعرف شيئًا عن هذا الناسخ ولا نعرف تاريخ انتهاء إعداد النسخ كذلك. ولكن من الأرجح أنّ هذا الناسخ كان على قيد الحياة ويمارس فنّه في أواخر القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، أو في أوائل القرن الذي يليه، لأنّ جميع

[1]. تحت رقم Ms. Arab. C. 79. وتمتد هذه الرسالة من الصفحة 22 إلى الصفحة 24، وهي مكتوبة بخط مغربي لا بأس به.

التآليف والرسائل من هذا العصر. وبالإضافة إلى ذلك فإن آخر تعليق من التعاليق بقلم الناسخ تُوجد في هوامش التأليف، له تاريخ سنة 1206هـ/ 1709م.

ويخبرنا الناسخ بأن هذه الرسالة قد بُعثت جواباً لرسالة كان قد بعث بها السلطان المولى إسماعيل لأهل فاس، ويبدو من نصّ الجواب أنّ السلطان كان قد وبّخهم فيها توبيخاً شديد اللهجة ونسب لهم فيها الميل الى الثورة وعدم الأمانة. وترجع هذه التهم بلا شك إلى الخصام الذي كان قد أفسدت من أجله العلاقات بين مدينة فاس والسلطان منذ سنين، وهو الخصام الذي دار حول قضية تمليك حراطين فاس وشرعية استرقاقهم، ممّا أدى إلى معارضة عدد من علماء فاس له. فلم يكن باستطاعة السلطان أن يحصل على موافقتهم على هذا مدّة سنين طويلة.[2] ومن المعروف أنّ السلطان قد بعث بعدّة رسائل إلى مدينة فاس يوبّخ فيها أهلها وعلماءها بالخصوص قبل هذا.[3] وكان هذا الخصام قد بلغ أوج ذروته في السنة التي سبقت تاريخ كتابة الرسالة المعروضة هنا. وذلك أنّ السلطان بعث عبد الله الروسي إلى فاس لكي يملّك حراطينها، ولكي يحصل على موافقة علماء المدينة على فعله هذا، فلم ينفعه شيئاً. وبعد صلاة الجمعة كان العلماء المتمردون قد رفعوا أصواتهم بالاستنكار مطالبين حكم الشريعة، فخرج الروسي ذاهباً إلى مكناس بفقهاء فاس.[4] ثم أحضرهم السلطان وحاورهم في ذلك، وأبدى غضبه على معارضتهم إياه، ولا سيّما على معارضة العالم عبد السلام جسّوس.[5] ثمّ أمر بالقبض عليه، وبعث به مكبّلاً إلى فاس، ولكنّه أطلق سراحه فيما بعد. ولم يزل يمتنع من الموافقة فسُجن أيضاً بعد ذلك بقليل، أي قبيل تاريخ هذه الرسالة. ومن الطبيعي في هذه الظروف أن يجتهد أهل فاس في تهدئة السلطان، وأن يمهّدوا العلاقات المتوتّرة وأن يحاولوا أن يحرّروا فقيههم المسجون.

---

[2]. محمّد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجّي وأحمد التوفيق، الجزء الثالث (الرباط: مكتبة الطالب، 1986)، 116، 117، 205.

[3]. كان ذلك في سنتي 1108 و1110. انظر محمد بن الطيب القادري، **حوليّات نشر المثاني حسب مخطوطة فريدة بمكتبة البودليان بجامعة أكسفورد**، تحقيق نورمان زيگار (الرباط: المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1978)، 19-20.

[4]. القادري، **حوليّات نشر المثاني**، 24.

[5]. وصف هذا الأمر محمد بن عبد السلام الرباطي الملقب بالضعيّف، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة**، تحقيق محمد البوزيدي الشيخي (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1988)، 191-195.

ومن الغريب أنّ قضية الحراطين هذه ليست مذكورة أصلاً في هذه الرسالة، مع أنّ هذه القضية كانت هي السبب في توتر العلاقات بين الجانبين. ولا يوجد فيها أيّ ذكر للعالم عبد السلام جسّوس المتقدم، فتكون الرسالة نوعاً من التشفع الخفي للعالم المحبوس خوفاً من غضب السلطان. وقد تجنّب باعثو الرسالة فعلا ذكر كلّ ما من شأنه أن يغضب السلطان. بل وتقبل المدينة في الرسالة راضية أم كارهة عددا من الجواري من القصر لتربيتهنّ في فاس، وتكون النفقات من الأرجح على حساب المدينة نفسها. ومع ذلک، فلم تنفعهم هذه الرسالة كثيراً لأنّ السلطان لم يزل يبدي غضبه على أهل المدينة ولم يسامح العالم المسجون، بل أمر بقتله صبراً بفاس. ولم يكن بين إرسال هذه الرسالة ويوم قتله سوى خمسة أيام.

والجدير بالذكر أنّ لهذه الرسالة قيمة أدبية، فضلا عن قيمتها التاريخية، بل وتعتبر تحفة في تحرير الرسائل. حيث تتسم بحسن الأسلوب وبالرقة في التعبير، ولا تنقص في شيء عن مستوى الرسائل المحررة في العصر السعدي. وتدل هذه الرسالة على أنّ مؤلفها كان أديبًا أريبًا، ولعلّه عالم من علماء الوقت بفاس. وفيما يلي نصّ الرسالة، نقلتها كما وجدتها وصححتُ الأخطاء المنسوبة إلى الناسخ في التعاليق المعلقة بها، وكذلک كتابة حرف الهمزة حسب القواعد الحديثة.

نص الوثيقة

"[**ص. 22**] الحمد لله وحده هذه رسالة بعثها أهل فاس للسلطان مولانا إسماعيل (قدّس الله سرّه) جوابًا عن رسالة بعث بها إليهم يظهر مضمونها من هذا الجواب، ونصّه:

الحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد وءاله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا، المقام الذي أسِّس بنيان شرفه على أسّ عتيق وثيق وتنورت أرجاء عليائه بأنوار التأييد والتوفيق وأكرمه الحق سبحانه بالهداية [إلى؟][6] سواء الطريق مقام مولانا الإمام صرخة الإسلام وغوث الأنام وملاذّ الخاص والعام، ذو السيرة السنية التي

[6]. الكلمة غير واضحة بالأصل.

سارت بها الركبان والهمم العلية التي حاز شرفها وليس له فيها ثان، الذي جدّد رسم الحق بعد ما درس وحاط الأمة بسيف الله وحرس وجرّد عزمه لمصالح البرية ونصب نفسه الكريمة لعصمة الأموال والذرية،[7] بهجة الدنيا التي ملأت النواظر هديا وسمتا وقسطاس من العدل لا ترى في طريقه عوجا ولا امتا، صدر صدور الأئمّة وعلم أعلام هذه الأمة قرة العين الذي طاب ذكره ووجب شكره وانتشر على البسيطة خيره، ومن بذل له النصح فله أجره، أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين محي الملة والدين الكاف لا كف المعتدين فخر السلاطين وشمس الخلفاء من أبناء سيد المرسلين ذو الحسب الشامخ والمجد الأثيل والنسب الباذخ[8] والفخر الاصيل أبو المكارم مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف الحسني المرحوم المبرور المقدس المشكور المرفّع في عليين مع الرفيق الأعلى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين زاده الله في ملكه بَسْطة تبسط للسالک نهج السلوک وتحله من الرفعة والمكانة محل الشمس عند الدلوک لا زال الدهر يخدمه والنصر يقدمه والفتوحات تصافحه والبركات تغاديه وتراوحه. من عبيدكم وخولكم وخدمكم الممتثلين لأوامركم المنقادين قلبًا وقالبًا لطاعتكم المحبين في هذا الجانب النبوي السيادي المولوي النقي الطاهر المؤملين شفاعته في يوم تخاف على نفسها فيه الأكابر الداعين إلى الله سبحانه في مظان الإجابة في صلاح أحوالكم وتخليد دولتكم التي أنامتنا في ظل الأمان ونشرت علينا جلابيبها العدل والاحسان وقديت بها نار الفتن برمادها وصديت سيوف البرح في اغمادها وحقنت الدماء في أجسادها وفلت به شوكة العصابة الكافرة وقهرت عساكر عبدة الصليب المتكاثرة، أهل حضرة فاس وما اشتملت عليه من جميع الناس خاصتهم وعامتهم والشريف والمشروف ومن سواهم ألوفٌ ألوف ينهون إلى مقامكم الشريف ألف ألف سلام ويحملون إلى حضرتكم الطاهرة أوقار التحيات والاكرام والتبجيل والاعظام ويقبلون الرغام تحت الأقدام ويلثمون الثرى أمامكم بالشفاه ويعرفون المعاطس بين أيديكم والجباه.

---

[7]. في المخطوط: الدرية.

[8]. في المخطوط: البادخ.



هذا وقد وافانا كتابكم العزيز وخطابكم الفائق الرائق العذب الوجيز فقبلنا منه السطور والطروس واجلناه على العيون والرؤوس واجتمع الناس لقراءته وانثالوا وهفوا إلى

سماع خطابه الفخيم ومالوا واحتفلوا لقراءته بأعظم المساجد المرفعة بسمت ووقار وسكون ودعه وصدع به قارئه اثر صلاة الجمعة على منصة الخطابة ومحل الضراعة والاجابة وقص جميعه على من جمعه ذالک الصعيد واسمع القريب والبعيد وافهم الفطن والبليد، وعند انقضاء قراءته ضجت اصواتهم بأقوال حسنة واذكار وصلاة على النبي المختار ودعوا كلهم لمولانا المنصور بالله بدعائهم الصالح واخلصوا له في ذالک النيات والقرائح وكان له جمع حفيل مشهود ويوم من الدهر مبارک محمود.

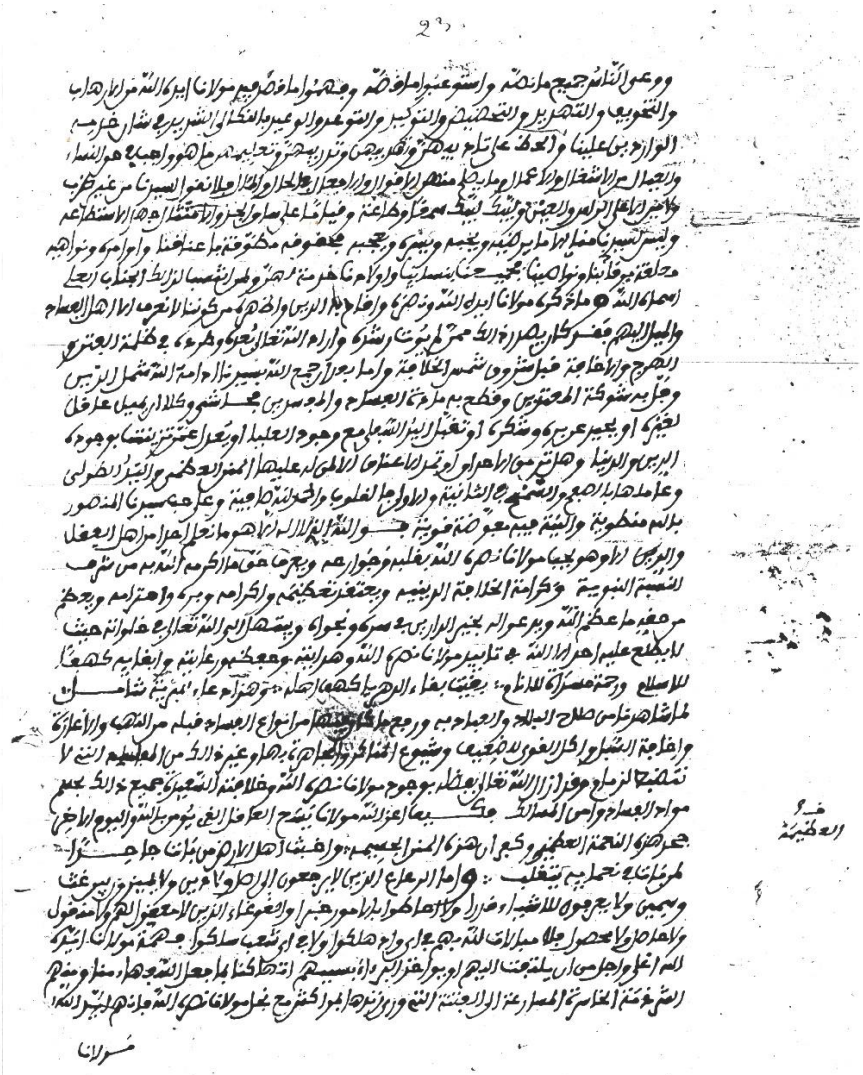
[ص. 23] ووعى الناس جميع ما نصه واستوعبوا ما قصه وفهموا ما قصد فيه مولانا أيده الله من الإرهاب والتخويف والتهديد والتحضيض والتوكيد والتوعد والوعيد بالنكالى الشديد في شأن خدمه الواردين علينا والحضّ[9] على تأديبهنّ وعلى تهذيبهنّ[10] وتدريبهنّ وتعليمهنّ ما هو واجب في همّ النساء والعيال من الأشغال والأعمال وما يصلح منهنّ الأقوال والأفعال في الحال والمال فلا نقول لسيدنا من غير ظرف ولأمير[نا][11] إلاّ على الرأس والعين لبّيک لبّيک سمعًا وطاعة وقيامًا على ساق الجد والامتثال جهد الاستطاعة وليس لسيدنا منا الا ما يرضيه ويحبه ويسره ويعجبه فحقوقه مطوّقة باعناقنا واوامره ونواهيه معلقة برقابنا ونواصينا فجميعنا بنسائنا واولادنا خدمة لهنّ ولمن انتسب لذالک الجناب العلي اسماه الله. وما ذكره مولانا ايده الله ونصره واقام به الدين واظهره من كوننا لا نعرف إلا أهل الفساد والميل إليهم فقد كان يصدر ذالک ممّن لم يوت رشده وأراد الله تعالى بُعده وطرده في ظلمة الفتن والهرج والاخافة قبل شروق شمس الخلافة، وأما بعد أن جمع الله بسيدنا ادامه الله شمل الدين وفلّ به شوكة المعتدين وقطع به مادة الفساد والمفسدين فحاشى وكلا أن يميل عاقل لغيره أو يحيد عن بره وشكره أو تقبّل اليد السفلى مع وجود العليا أو يُعدل عمّن تزينت بوجوده الدين والدنيا. وهل ترمق الاحداق او تمد الاعناق إلا لمن له عليها المنى العظمى واليد الطولى وعاملها بالصفح والسمح في الثانية والاولى، فالقلوب والحمد لله صافية وعلى حب

[9]. في المخطوط: الحظ.

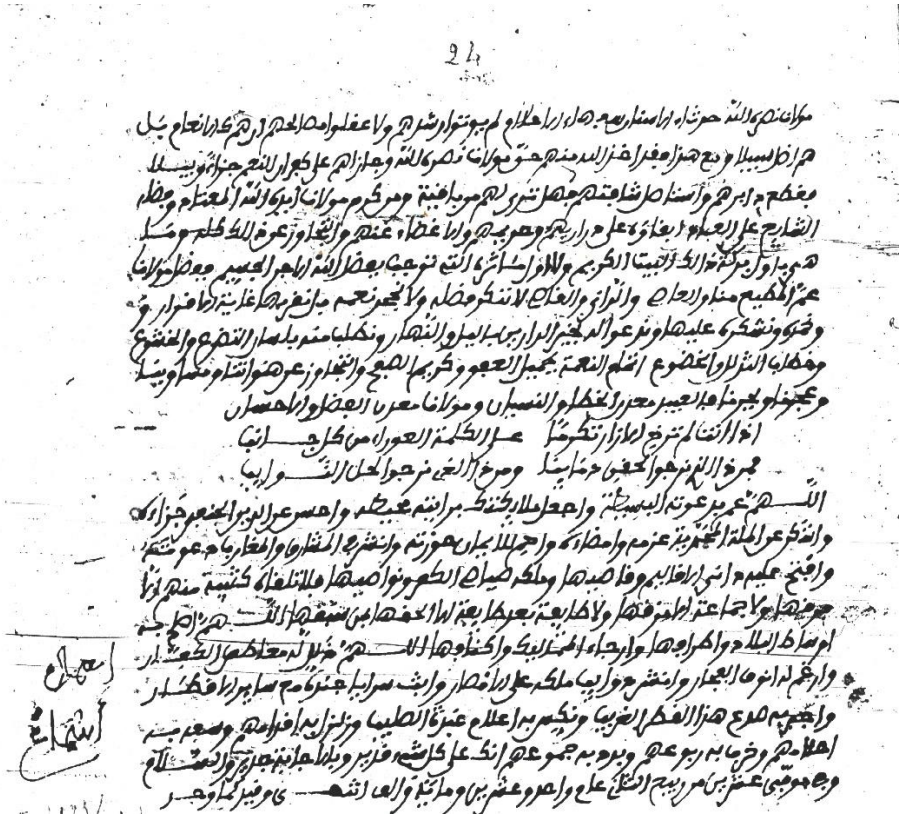
[10]. في المخطوط: تهديهن.

[11]. سقط في الأصل.

سيدنا المنصور بالله منطوية والنية فيه مفوّضة قوية. فوالله الذي لا إله إلا هو ما نعلم أحدا من أهل العقل والدين إلا وهو يحب مولانا نصره الله بقلبه وجوارحه ويعرف حق ما أكرمه الله به من شرف النسبة النبوية وكرامة الخلافة الدينية ويعتقد تعظيمَه وإكرامه وبره واحترامه ويعظم من حقِّه ما عظم الله ويدعوا له بخير الدارين في سره ونجواه ويبتهل إلى الله تعالى في خلواته حيث لا يطلع عليه أحد إلا الله في تأييد



مولانا نصره الله وهدايته وحفظه ورعايته وإبقائه كهفًا للإسلام ورحمة مسداة للأنام بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل لما شاهدنا من صلاح البلاد والعباد به ورفع ما كان فيها من انواع الفساد قبله من النهب والإعارة واخافة السبل وأكل القوي للضعيف وشيوع المناكر والمجاهرة بها وغير ذالک من المفاسد التي لا تنضبط لزمام وقد أزال الله تعالى بفضله بوجود مولانا نصره الله وخلافته السعيدة جميع ذالک بحسم مواد الفساد وأمن المسالک. فكيف أعز الله مولانا يسع العاقل الذي يؤمن بالله واليوم الاخِر جحد هذه النعمة العظيمة وكفران هذه المنى الجسيمة؟ وأخبث أهل الأرض من بات جاحدا لمن بات في نعمائه يتقلب. وأما الرعاع الذين لا يرجعون الى أصل ولا دين ولا يميزون بين غث وسمين ولا يعرفون للأشياء قدرا ولا أحاطوا بالأمور خبرا والغوغاء الذين لا معقول لهم ولا منقول ولا حاصل ولا محصول فلا مبالاة لله بهم في أي واد هلكوا ولا في أي شعب سلكوا فهمّة مولانا أيده الله أعلى وأجل من أن يلتفت اليهم أو يواخذ البرآء بسببهم اتهاكنا بما فعل السفهاء منا ومنهم الشرذمة الخاسرة المسارعة إلى الفتنة التي ورى زندها بمراكش مع نجل مولانا نصره الله فإنهم ايّد الله.



[ص. **24**] مولانا نصره الله حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام لم يوتوا رشدهم ولا عقلوا مصالحهم إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا ومع هذا فقد أخذ الله منهم حق مولانا نصره الله وجازاهم على كفران النعم جزاءً وبيلا فقطع دابرهم واستأصل شافتهم فهل ترى لهم من باقية ومن كرم مولانا ايده الله المعتاد وفضله الشائع على العباد ابقاؤه على ذراريهم[12] وحريمهم والاغضاء عنهم والتجاوز عن ذالک كله. وما هي بأول بركة ذالک البيت الكريم ولا اول مآثره التي توجب بفضل الله الأجر الجسيم ففضل مولانا عمّ المطيع منا والعاصي والداني والقاصي لا ننكر فضله ولا نجحد نعمه بل نقر بها غاية الاقرار ونحمده ونشكره عليها وندعوا له بخير الدارين باليل[13] والنهار ونطلب منه بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع اتمام النعمة بجميل العفو وكريم الصفح

[12]. في المخطوط: دراريهم.

[13]. اليل: مكتوب حسب القاعدة الأندلسية.

والتجاوز عن هنواتنا ومساوينا وعجزنا وفجرنا فالعبيد معدن الخطأ والنسيان ومولانا معدن الفضل والاحسان.

[الطويل]

إِذْا أَنْتَ لَمْ تَرْخِ ٱلآزَارَ تَكَرُّمًا عَلَى ٱلْكِلِمَةِ ٱلْعَوْرَاءِ مِنْ كلِّ جَانِبِ
فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي نَرْجُوا لِحِقْنِ دِمَائِنَا وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي نَرْجُوا لِحَلِّ ٱلنَّوَائِبِ

اللهمّ عم بدعوته البسيطة واجعل ملائكتک برايته محيطة واحسن عن الدين الحنفي جزاءه واشكر عن الملة المحمّدية عزمه وامضاءه ورحم للإيمان حوزته وانشر في المشارق والمغارب دعوته وافتح عليه داني الاقاليم وقاصيها وملكه صياصي الكفر ونواصيها فلا تلقاه كثيبة منهم إلا فرّقها ولا جماعة الا مزّقها ولا طائفة بعد طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها اللهمّ اصلح به أوساط البلاد وأطرافها وارجاء المماليک وأكنافها اللهمّ ذلّل له معاطي الكفّار وأرغم له أنوف الفجار وانشر دوائب ملكه على الأمصار وابث سرايا جنده مع سائر الاقطار وأجبر به صدع هذا القطر الغريب ونكس به أعلام عبدة الصليب وزلزل به اقدامهم وسفه به أحلامهم وخرب به ربوعهم وبدد به جموعهم إنک على كل شيء قدير وبالإجابة جدير والسلام.

وفي موفي عشرين من ربيع الثاني عام واحد وعشرين ومائة وألف.

انتهى. وقيّد كما وُجِد.[14]

Bibliographie

Al-ḍuʿayyif, Muḥammad ʾIbn ʿabd al-Salām al-Ribāṭi. *Tārīkh al-dawla al-ʿAlawiyya al-saʿīda*. Taḥqīq Muḥammad al-Būzīdī al-Shaykhī. Casablanca: Dār al-Thaqāfa, 1988.

Al-Qādirī. Muḥammad ʾIbn al-Ṭayyib. *Nashr al-Mathānī li-ʾahl al-qarn al-hādī ʿashar wa-thānī*. Taḥqīq Muḥammad Ḥajjī et ʾAḥmad al-Tawfīq, t. III. Rabat: Maktabat al-Ṭālib, 1986.

_____. *Ḥawliyāt Nashr al-Mathānī ḥasaba Makhṭūṭa farīda bi-Maktabat al-Būdliyān bi-Jāmiʿat Oxford*. Taḥqīq Norman Cigar. Rabat: al-Mʿhad al-Jāmiʿī li-l-Baḥt al-ʿilmī, 1978.

[14] كلام الناسخ.

العنوان: رسالة غير منشورة من أهل فاس إلى السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف

ملخّص: نقترح في هذه الورقة، تقديم ونشر محتويات رسالة بعث بها أهل فاس إلى السلطان المولى إسماعيل سنة 1121هـ/1709م. وتُوجد نسخة منها في خزانة البودليان التابعة لجامعة أكسفورد البريطانية. وقد تم العثور عليها ضمن مجموع يحتوي على عدد من الرسائل المغربية تعود إلى أوائل الدولة العلوية ولم تُنشر بعد هذه الرسالة، وليست مذكورة في أي تأليف تاريخي ولا في أي دليل ببليوغرافي. أما موضوعها وسياقها العام، فيتعلق بالخلاف الذي نشأ بين السلطان وأهل فاس في موضوع الحراطين.

الكلمات المفتاحيّة: المغرب، فاس، مولاي إسماعيل، الحراطين، العلماء.

Titre: Lettre inédite des habitants de Fès au sultan Mūlāy ʾIsmāʿīl, Ibn as-Sharīf

Résumé: Dans cet article, nous nous proposons de présenter et de publier le contenu integral d'une lettre envoyée par les habitants de Fès au sultan Moulay Ismail en 1121 H/1709 J.-C. Une copie de cette lettre est conservée à la Bodleian Library de l'Université d'Oxford. Il s'agit d'une correspondance inédite, qui n'a pas été publiée, ou mentionnée dans aucun ouvrage historique ou répertoire bibliographique. Son objet et son contexte général sont liés au différend qui a opposé le sultan aux habitants de Fès sur la question du *Ḥarātīn*.

Mots-clés: Maroc, Fès, Mūlāy ʾIsmāʿīl, *Ḥarātīn*, *ʾUlamā*.